

## الفصل العاشر

### هجرة الرسول ﷺ

الأمر بالهجرة - عليّ في فراش النبي - في غار ثور - الخروج إلى يثرب - قصة سراقه بن جهم - مسلمو يثرب في انتظار الرسول - الإسلام بيثرب - دخول عهد المدينة.

#### الأمر بالهجرة:

اتصل بمحمد نبياً ما بيتت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها، وما قد يجر ذلك على مكة من أذى، وعلى تجارتها مع الشام من يوار، ولم يكن أحد يشك في أن محمداً ﷺ سينتهز الفرصة فيهاجر. عليّ أن ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد إلى سره سبيلاً، حتى أبو بكر، الذي أعد راحلتين منذ استأذن النبي في الهجرة فاستمهلته، قد بقي لا يعرف من الأمر إلا قليلاً. ولقد ظل محمد ﷺ بمكة حتى علم من أمر قريش ما علم، وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل. وإته لينتظر أمره إذ أوحى إليه أن يهاجر. هنالك ذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره بأن الله أذن له في الهجرة، وطلب الصديق أن يصحبه في هجرته فأجابته إلى ما طلب.

#### عليّ في فراش النبي ﷺ - في غار ثور:

هنا تبدأ قصة من أجل ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة. كان أبو بكر قد أعد راحلتيه ودفعها إلى عبد الله بن أبي ربيعة يرعاها لميعادها. فلما اعتزم الرجلان مغادرة مكة لم يكن لديها ظل من ريب في أن قريشاً ستبعتها. لذلك اعتزم محمد ﷺ أن يسلك طرقاً غير مألوفة، وأن يخرج إلى سفره في موعد كذلك غير مألوف. وكان هؤلاء الشبان الذين أعدت قريش لقتله يحاصرون داره في الليل مخافة أن يفر. ففي ليلة الهجرة أسر محمد ﷺ إلى عليّ بن أبي طالب أن يتسجى برده المضمم الأخرض وأن ينام في فراشه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس. وجعل هؤلاء الفتية من قريش ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي، فيرون في الفراش رجلاً فطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد ﷺ في غفلة منهم إلى دار أبي بكر وخرج الرجلان من حوطة في ظهرها، وانطلقا جنوباً إلى غار ثور؛ فاتجاهها نحو اليمن لم يكن مما يرد بالبال.

لم يعلم بمخبتها في الغار غير عبد الله بن أبي بكر وأخته عائشة وأسما ومولاهم عامر بن فهيرة. أمّا عبد الله فكان يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأترون بمحمد ﷺ ليقتصه ليلاً على النبي وعلى أبيه. وأمّا عامر فكان يرعى غنم أبي بكر، وكان إذا أمسى أراح عليها فاحتلبا وذهبا.

وإذا عاد عبد الله بن أبي بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فعفى على أثره. وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تجدد في طلبها غير وانية. وكيف لا تفعل وهي ترى الخطر محققاً بها إن هي لم تدرك محمداً ولم تحل بينه وبين يثرب! أما الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفتر عن ذكر الله، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور، وأبو بكر يرهف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يقفون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحاً.

وأقبل فتيان قريش، من كل بطن رجل، بأسيا فهم وعصيهم وهراواتهم يدورون باحثين في كل اتجاه. ولقوا راعياً على مقربة من غار ثور سألوه: فكان جوابه:

- قد يكونان بالغار، وإن كنت لم أر أحداً أمه.

وتصيب أبو بكر عرقاً حين سمع جواب الراعي، وخاف أن يقتحم الباحثون عنها الغار، فأمسك أنفاسه وبقي لا حراك به وأسلم لله أمره. وأقبل بعض القرشيين يتسلقون إلى الغار، ثم عاد أحدهم أدراجه فسأله أصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ فقال: إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ﷺ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين يفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه. ويزداد محمد ﷺ إمعاناً في الصلاة ويزداد أبو بكر خوفاً، فيقترب من صاحبه ويلصق نفسه به، فيهمس محمد في أذنه: لا تحزن! إن الله معنا.

وفي رواية كتب الحديث: أن أبا بكر لما شعر بدنو الباحثين قال هامساً:

- لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا.

فأجابه النبي:

- يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما!

وزاد القرشيين اقتناعاً بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلت فروعها إلى فوهته، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع. إذ ذاك انصرفوا وسمع اللاجئان تناديهم للأوبة من حيث أتوا؛ فازداد أبو بكر إيماناً بالله ورسوله، ونادى محمد: الحمد لله، الله أكبر.

معجزة الغار:

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة، تلك هي المعجزة التي تقص كتب السيرة في أمر الاختفاء بغار ثور. ووجه المعجزة فيها أن هذه الأشياء لم تكن موجودة، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار أسرع العنكبوت إلى نسيج بيتها تستر به من في الغار عن الأعين، وجاءت الحمامتان فباضتا عند يابه، ونمت الشجرة ولم تكن نامية. وفي هذه المعجزة يقول المستشرق دِرْمِنْجِم:

«هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقص التاريخ الإسلامي الجِد: نسيج عنكبوت، وهوى حمامة، وغاء شجيرة؛ وهي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في أرض الله نظائر».

## إغفال بعض السير إياها:

على أن هذه المعجزة لم ترد في سيرة ابن هشام، بل كل ما أورد هذا المؤرخ في سياق قصة الغار ما يأتي: «عمدا إلى غار بثور - جبل أسفل مكة - فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيها نهاره، ثم يأتيها إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحها عليها إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيها من الطعام إذا أمسيت بما يُصلحها.. فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً. وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره ومعهم، يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيها إذا أمسى فيخبرها الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليها غنم أبي بكر فاحتلبها وذبحها. فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندها إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفَى عليه. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنها الناس. أتاها صاحبها الذي استأجرا بيعيرها وبعير له. إلخ...» هذا ما ذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج محمد ﷺ وصاحبه منه.

وفي مطاردة قريش محمداً ﷺ لقتله وفي قصة الغار هذه نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> وقوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

## الخروج إلى يثرب:

وفي اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنها أتاها صاحبها بيعيرها وبعير له، وأنتها أسماء بنت أبي بكر بطعامها. فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما، فشقت نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتظمت بالنصف الآخر؛ فسميت لذلك «ذات النطاقين». وامتنى كل رجل بعيره، ومعها طعامها ومع أبي بكر خمسة آلاف درهم هي كل ماله. وزادها اختفاؤها بالغار وعلمها بإمعان قريش في تتبعها حرصاً وحذراً فتخذت إلى يثرب طريقاً غير الطريق الذي ألف الناس. سلك بها دليلها عبد الله بن أريقط (أحد بني الدؤل) ممعناً إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متجهاً إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر. فلما كانا في غير الطريق الذي ألف الناس اتجه بها شمالاً محاذياً الشاطئ مع الابتعاد عنه، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقه أحد، وأمضى

(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

(١) سورة الأنفال آية ٣.

الرجلان ودليلهما طيلة الليل وصدر النهار على رواحلهم، لا يعبان بمشقة ولا يرضيها تعب. وأية مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصدّهما عن الغاية التي يبتغيان بلوغها في سبيل الله والحق. صحيح أن محمداً لا تساوره ريبة في أن الله ناصره ولكن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. والله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه، وفي عون أخيه. لقد تخطياً في أمان أيام الغار، ولكن ما جعلته قريش لمن يردها أو يدل عليها جدير بأن يستهوى نفوساً يفرها الكسب المادى ولو جاء عن طريق الجريمة. فما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمداً ﷺ عدواً لهم! وفي نفوسهم من خُلِقَ الغيلة ما لا يأنف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعاً. فليكونا إذاً على أشد الحذر، وليكونا أعيناً ترى، وآذاناً تسمع، وقلوباً تشعر وتعى.

### قصة سراقه:

ولم يخبئها حدسها؛ فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى ركبة ثلاثة مروا عليه يعتقدهم محمداً وبعض أصحابه، وكان سراقه بن مالك بن جعشم حاضراً فقال: إنما هم بنو فلان؛ ليضل الرجل وليفوز بمنم النوق المائة. ومكث مع القوم قليلاً ثم عاد إلى بيته فتدجج بسلاحه، وأمر بفرسه فارسل إلى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه، وامتطاه ودفعه إلى الناحية التي ذكر ذلك الرجل، وكان محمد ﷺ وأصحابه قد أناخوا في ظل صخرة ليقبلوا ويرفها عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وصب، ولينالوا من الطعام والشراب ما لعلهم يستعيدون به قوتهم وصرهم. وبدأت الشمس تتحدر، وبدأ محمد ﷺ وأبو بكر يفكران في امتطاء جملها إذ كانا من سراقه قيد البصر. وكان جواد سراقه قد كياه قبل ذلك مرتين لشدة ما جهده. فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فرأدها إلى مكة أو قاتلها إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً، نسي كيوت جواده ولزه ليمسك بيده ساعة الظفر. ولكن الجواد في قومته كبا كبة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه. وتطير سراقه وألقى في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته، وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هم مرة رابعة لإنفاذ محاولته. هنالك وقف ونادى القوم: أنا سراقه بن جعشم. انظروني أكلمكم، فوالله لا أريكم ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه. فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه. وكتب أبو بكر بأمر النبي كتاباً على عظم أو خرف ألقاه إلى سراقه؛ فأخذه وعاد أدراجه، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده.

### لظى الطريق:

وانطلق محمد ﷺ وأصحابه يقطعان بطون تهامة في قيظٍ مُحْرِقٍ تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان إكاماً ووهاداً، ولا يجيدان أكثر الأمر ما يتقيان به شواظ الهاجرة، ولا يجيدان ملجأ من قسوة

ما يحيط بها، وأمنًا مما يتخوفان أن يفجأها، إلا في صبرها وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانها بالحق الذي أنزل على رسوله. وظلا كذلك سبعة أيام متتالية يُنيخان في سحارة القيط وسريان على سفينة الصحراء الليل كله يجدان في سكينته وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته ما يطمئن له قلباها وتستريح له نفساها. فلما بلغا مقام قبيلة بنى سَهْم وجاء إليهما شيخها بريدة يحییها زالت مخاوفها واطمأنت لنصر الله قلوبها وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى.

مسلمو يثرب في انتظار الرسول ﷺ - انتشار الإسلام بيثرب:

وفي فترة رحلتها هذه المضنية كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجرة النبي وصاحبه ليلحقا أصحابها فيها. وكانت قد عرفت ما لقيها من عنت قريش ومن تنبئها إياها. لذلك ظل المسلمون جميعاً بها وهم ينتظرون مَقْدَم صاحب الرسالة بنفوس ممتلئة شوقاً لرؤيته والاستماع له. وكان الكثيرون منهم لما يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوة عزمه ما جعلهم لِقْيَاه أشد اشتياقاً، وإلى رؤيته أشد تطلُّعاً. وإنك لتقدر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا محمداً من قبل، وإنما اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه الذين كانوا أشد المسلمين لدين الله ودعوة لرسول الله حياً. جلس سعد بن زُرَّارة ومُصعب بن عُمَيْر في حائط من حوائط بنى ظَفَر واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا؛ فبلغ نبؤهما سعد بن مُعَاذ وأَسِيد بن حُضَيْر، وكانا يومئذ سيدى قومها؛ فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما، وانهما، فإن سعد بن زُرَّارة ابن خالتي ولا أجد عليه مَقْدماً. فذهب أسيد إليهما يزرهما. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُف عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفت وركزت حربته وجلس إليهما، وسمع إلى مصعب فقام مُسَلِّماً، وعاد إلى سعد بوجه غير الوجه الذي تركه به. فعاظ ذلك سعداً، وقام هو إلى الرجلين، فكان أمره كأمر صاحبه وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال:

يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟  
قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأميننا نقيبةً.

قال: فإن كلام نسانكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.  
فأسلم بنو عبد الأشهل جميعاً رجالاً ونساءً.

ويبلغ من انتشار الإسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبي ﷺ إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة، وما طوع لبعض الشبان من المسلمين أن يعبتوا بأصنام المشركين من أهلهم. كان لعمر بن الجُمُوح صنم من خشب يدعوه مَنَاءً، قد اتخذته في داره كما كان الأشراف يصنعون. وكان عمرو سيدياً من سادات بنى سَلْمَةَ وشريكاً من أشرفهم. فلما أسلم فتیان قومه كانوا يُريجون بالليل على صنمه فيحملونه فيكونه على رأسه في إحدى الحُفَر التي يخرج أهل يثرب لقضاء

حاجاتهم بها. فإذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسح حتى يعثر به، ثم غسله وطهره ورتبه مكانه وهو يبرق ويترعد ويتهدد ويتوعد. وكرّر فتيان بنى سلمة عبيتهم بمنّة ابن الجموح، وهو كل يوم يغسله ويطهره. فلما ضاق بهم ترّعاً علّق على الصنم سيفه وقال له: إن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. وأصبح فالتمسح فوجده في بئر مقروناً إلى كلب ميت وليس معه السيف، فلما كلمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك لا يحتمل بإنسان.

يسيراً عليك أن تقدّر، مع ما بلغ الإسلام من علو الشأن يثرب، تحرّق أهلها شوقاً إلى مقدم محمد عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة. كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمّسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال في هذه الأيام الحارة من شهر يولييه. وبلغ هو قباه - على فرسخين من المدينة - فأقام أربعة أيام بها ومعه أبو بكر. وفي هذه الأيام الأربعة أسس مسجدها. وبينما هم بها وصل إليها عليّ بن أبي طالب الذي ردّ الودائع التي كانت عند محمد ﷺ لأصحابها من أهل مكة ثم غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه، يسير الليل ويستخفي بالنهار، ويحتمل هذا الجهد المضى أسبوعين كاملين ليُلحق بإخوانه في الدين.

دخول محمد ﷺ المدينة:

إن مسلمي يثرب لينتظرون يوماً كهاتمهم إذ صاح بهم يهودي كان قد رأى ما يصنعون. «يا بني قبيلة، هذا صاحبكم قد جاء». وكان هذا اليوم يوم الجمعة، فصلّاها محمد بالمدينة. وهناك في المسجد الذي بطن وادي راثونا أقبل عليه مسلمو يثرب وكلّ يحاول أن يراه وأن يقترب منه، وأن يملأ عينيه من هذا الرجل الذي لم يره من قبل، والذي امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالإيمان برسالته، والذي يذكره كل يوم أثناء صلاته مرات. وعرض عليه رجال من سادة المدينة أن يُقيم عندهم في العدة والعدة والمنعة؛ فاعتذر لهم وامتطى ناقته وألقى لها خطاها، فانطلقت في طرق يثرب والمسلمون من حولها في حقل حافل يخجلون لها طريقها، وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون إلى هذه الحياة الجديدة التي دبت إلى مدينتهم، وإلى هذا القادم العظيم الذي اجتمع عليه من الأوس والخزرج من كانوا من قبل أعداء متقاتلين، ولا يجول بخاطر أحدهم في هذه البرهة التي اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديدة، ما أعد القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يبقيان على الزمن ما بقى الزمن وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مرّيد لغلامين يتيمين من بنى النجار، هنالك برّكت، ونزل الرسول عنها، وسأل: لمن المرید؟ فأجابه معاذ بن عفراء: إنه لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان له وسيرضيها، ورجا محمداً أن يتخذها مسجداً. وقبل محمد وأمر أن يُبنى في هذا المكان مسجده وأن تُبنى داره.

